مدرسة الإسكندرية

الإنسان: ذكر وأنثى (٣)

د.جورج عوض إبراهيم

إن لم تؤمنوا فلن تفهموا

العدد الرابع - ٢٠١٠

مجلة مدرسة الإسكندرية

عدد ٤

الإنسان ذكر وأنثى (٣)
إنسان اليوم السابع بعد السقوط

د. جورج عوض إبراهيم

الإنسان: ذكر وأنثى (٣)

إنسان اليوم السابع (بعد السقوط)

د.جورج عوض إبراهيم
دكتوراه في العلوم اللاهوتية ـ جامعة أثينا
باحث بالمركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية
Georgeaouad@alexandriaschool.org

التغير الحادث للطبيعة البشرية

انشغلنا في المقالتين السابقتين بالخلق والحالة الأولى للطبيعة البشرية، التي فيها كان الإنسان يحيا بطريقة تتجاوب مع طبيعته المخلوقة «بحسب صورة الله» ورسالته في العالم.

إنّ الملمح الجوهري لطريقة حياة الإنسان الأول كان هو العلاقة الشديدة والمباشرة مع خالقه وشركته. كل حياة الإنسان كانت ملتفتة ناحية الله (إذ كان الله هو مركز كل شيء θεοκεντρική). وبسبب هذه العلاقة، كانت النشاطات النفسية والجسدية للإنسان الأول متناغمة وتتميز بالاتزان والوجود الحسن لطبيعته.

فالشخصان البشريان؛ الرجل والمرأة انقادا منذ الخلق «بحسب الصورة» بما فيها من قدرات وإمكانيات إلى الحركة التصاعدية تجاه تحقيق هذه القدرات والامكانيات ليكونا «بحسب المثال» وبذلك يتحدا بالله.

لكن للأسف ظهرت عوائق لتلك الخطّة الإلهية منذ اللحظة الأولى لخلق الإنسان، تلك العوائق كانت من جانب الإنسان. فالإنسان تحرك حركته الأولى التصاعدية التي أعطاها له الله في وجوده، لكن كان للاختيار الخاطئ ولحركة الإنسان نتائج وخيمة بالنسبة لطبيعته الخاصة. فمن جهةٍ، تحركت الطبيعة البشرية تجاه الأسوأ في علاقتها بالله، ومن جهة أخرى، أزال الله ـ بسبب محبته للإنسان ـ العوائق التي بناها الإنسان أمام خطته الأولى حتى يُحقّق هدف خلق الإنسان وكل الخليقة.

سنتحدث، في هذه المقالة، عن الاختيار الخاطئ للإنسان، وأيضًا عن النتائج التي آلت إليها الطبيعة البشرية، كذلك سنشير إلى الإجراءت التي أتمها الله لكي يخلص الإنسان.

١. اختيار الإنسان الخاطئ ونتائجه على الطبيعة البشرية:

كانت حالة عدم الكمال أو الكمال النسبي هى الملمح الأساسي للإنسان في حالته الأولى، كما قلنا. وهذا يعني أن إرادة الإنسان الحُرَّة كانت غير كاملة أو على أفضل تقدير في مرحلة التَّكَمُّل[١] مثل كل القدرات التي أودعها الله في الإنسان حين خلقه بحسب صورته. هذه الإرادة الحرة غير الكاملة عُبر عنها في إمكانية الاختيار، لذا يقول القديس كيرلس الإسكندري في مقالته الأولى في «السجود بالروح والحق»: [لقد خُلِق الإنسان منذ البداية وفكره يسمو فوق الخطايا والشهوات، لكنه لم يكن مُحصّناً تماماً من الانحراف في اختياراته، لأن الخالق الأعظم للجميع، قد رأى حسناً، أن يترك الإنسان لإرادته المستنيرة ويسمح له أن يعمل ما يفكر فيه، وذلك بدافع نفسه فقط. وبمعنى آخر، كان يجب أن تُتممَّ الفضيلة اختيارياً وليس كأمر إجباري][٢]. فكما قال اللاهوتي الروسي فلاديمير لوسكي: [الطبيعة الكاملة ليست في إحتياج للاختيار لأنها صالحة بحسب طبيعتها وحريتها، ومؤسسّة على معرفتها بالصلاح][٣].

---

١ فِكرة أن الإنسان الأول كان طفلاً من جهة النضوج في الإيمان ينفرد بها القديس إيريناؤس الذي أراد أن يشدد على أن الإنسان الأول كان مدعوًا لمسيرة نحو الكمال (انظر الكرازة الرسولية، فقرة١٢). هذه الدعوة تحدث عنها القديس باسيليوس الكبير الذي نادى بأن الهبات الإلهية ترمي إلى إصعاد الإنسان إلى حالة الكمال، أي الصعود من الخلق «بحسب الصورة» إلى «حسب المثال»، بمعنى تحقيق كل إمكانيات الصورة. وهذا الصعود مستمر ودائم مثل عطايا الله التي هى دائمة ومتجددة بالروح القدس. انظر: القديس باسيليوس الكبير، الله ليس مسبِّبًا للشرور PG.31، 345، لاحظ نفسك PG 31، 213A – 212B، أيضًا عن الروح القدس PG 32 ، 109 BC . انظر أيضاً القديس إيريناؤس، الكرازة الرسولية، ترجمة ومقدمة وتعليقات وفهارس، د. نصحي عبد الشهيد، ود. جورج عوض إبراهيم، طبعة ثانية، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائيَّة، فبراير ٢٠٠٩ ص٧٨.

٢ القديس كيرلس الإسكندري، العبادة بالروح والحق (المقالة الأولى)، ترجمة د. جورج عوض إبراهيم، مراجعة لجنة المراجعة بالمركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، ديسمبر ٢٠٠١، ص٢٨.

٣ فلاديمر لوسكي، لاهوت الكنيسة الشرقية السري، أثينا ١٩٩٤، ص١٤٤ (باللغة اليونانية).

وحرية الإنسان غير الكاملة جعلت له إمكانية أن يفعل ويريد ما لا يتوافق مع طبيعته. لقد أعطى الله للإنسان هذه العطية العظيمة؛ الحرية، ليس ليقول لا لكن ليقول نعم[٤].

لذلك خلقَ الله الإنسان وأعطاه، كما قلنا، الحركة الأولى لطبيعته، تلك الحركة التصاعدية من المحسوسات إلى الذهنيات، من المخلوقات إلى الخالق. هذا الالتفات الطبيعي للإنسان ناحية خالقه عززه الله وحاول أن يجعله متجهًا فقط ناحيته بواسطة وصاياه التشريعية والتربوية. فالوصية الإلهية أظهرت للطبيعة البشرية الطريق الذي كان يجب أن تتبعه لكي تُحقِّق شركتها مع الله. ويؤكِّد القديس كيرلس الإسكندري هذا الأمر قائلاً: [كان يليق لهذا الإنسان المُزيَّن والمتوَّج بالخيرات السماوية الوفيرة أن لا يُترَك فينخدع بسهوله ويسقط في الكبرياء، متجاهلاً أسلوب الخضوع للأوامر، وأنه يوجد ضابط. لذلك أُعطي له قانون ضبط النفس كوسيلة أمان، حتى لا يُقاد إلى تجاهل السيد، ويكون مدعواً دائماً لتذكر ذاك الذي أعطاه الوصايا، كسيد له، هكذا يعرف بكل وضوح أنه كان خاضعاً لنواميس سيده][٥].

بناء على ذلك، فإن الحركة الطبيعية وإختيار الإنسان كانا متجهان ناحية الله خالقه وكان الإنسان مستحقاً للمواهب ولتعاليم الله التربوية وأن يتثبت في حركته ذات الاتجاه الواحد ويصير تدريجياً غير قابل للتغير.

لكن التفت آدم - للأسف - ناحية الاتجاه المضاد، ولم يتحرك تجاه نموذجه الأصلي، أي طبيعته الأولى. تحرك في الاتجاه المضاد؛ ناحية المحسوسات. بهذه الكيفية تحرَّك الإنسان، من العشق الإلهي واللّذة الناتجة عن شركته مع الله إلى عشق الأرضيات واللّذة الناتجة عنها[٦]. كان هذا هو الحدث التاريخي والمأسوي الذي غيَّر الطبيعة البشرية والتي يسميها اللاهوت المسيحي «السقوط». فقد إنسان اليوم السابع، أي إنسان بعد السقوط، التشبُّة بالله

---

[4] Α.Γιέβιτις، χριστός – αρχήκαι τίλος، σελ.45.

[٥] القديس كيرلس الاسكندري، العبادة بالروح والحق، ص٢٨-٢٩.

[٦] انظر ١تيمو ١:٥.

(لأن صورة الله التي في الإنسان قد تشوَّهت) ومرضت الطبيعة البشرية كما عبَّر عن ذلك القديس أثناسيوس الرسولي حينما قال: [طال الفساد، الخليقة العاقلة، وكانت صنعة الله في طريقها إلى الفناء][٧]. هكذا طرأ تغير على طبيعة البشر وصارت في حاله متغيِّرة عن الحالة الأولى التي كانت أقرب إلى الثبات. أما عن مظاهر هذا التغير فهى:

(أ) تسرب العنصر الطبيعي إلى الطبيعة البشرية وسيطرته عليها:

كان العنصر الطبيعي (البيولوجي والحيواني) بالنسبة للإنسان حقيقة خارجية (واقع خارجي)، في الحالة الأولى، قبل السقوط. فالعنصر الطبيعى كان موجوداً حوله وخارجه. كان لجسد الإنسان خاصة ملامح فريدة وفائقة تميزه عن جسد الحيوانات غير العاقلة. على الجانب الآخر، فإن استخدام العنصر المادي من جانب الإنسان قبل السقوط له ملمح مختلف. بينما استخدام الأطعمة المادية بالنسبة للحيوانات غير العاقلة كان يهدف إلى بقائهم على قيد الحياة، نجد أن استخدام الخيرات الماديّة بالنسبة للإنسان قبل السقوط، له ملمح إفخارستي أي أنه عمل للتواصل والشركة مع الله ومشاركة في العشاء الإلهي.

لكن عندما قطع الإنسان علاقته مع الله، غيرَّ طريقة حياته، وأحد التغيرات الخاصة بحياة الإنسان، بعد السقوط، هو علاقته مع العنصر المادي الطبيعي والبيولوجي. إذن حلَّ العنصر المادي الطبيعي محل العنصر الإلهي في حياة الإنسان بعد السقوط، وأصبح مركز الوجود البشري هو «العنصر الطبيعي».

لقد فقدت الطبيعة البشرية تدريجياً لباسها الإلهي ولبست ملامح العنصر الطبيعي، لقد تشبهت بطبيعة الحيوانات غير العاقلة. هذه النتيجة الأولى للسقوط قدمتها النصوص الكتابية من خلال موقفين:

---

[٧] القديس أثناسيوس الرسولي، تجسد الكلمة، ترجمة عن اليونانية وتعليقات د. جوزيف موريس فلتس، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، طبعة ثانية – أبريل ٢٠٠٣، الفصل السادس، فقرة٧، ص١٦.

الموقف الأول: يتعلق بأكل الثمرة المحرمة. سمح الله للإنسان أن يتذوق كل خيرات الأرض المادية فيما عدا شجرة كانت في وسط الفردوس والتي حرَّمها الله لأسباب تربويّة. أيضاً ظهر عامل غريب وغير معروف، هو الشيطان الذي أقنعهما أن يأكلا من «الثمرة المحرَّمة». وأبوينا الأولين (أدم وحواء) أكلا من هذه الثمرة. هذا الموقف يشير بالضبط إلى تغيُّر العلاقة بين الإنسان والله، وبين الإنسان والعنصر الطبيعي.

الحركة الطبيعية للإنسان كانت تصاعدية. حركة ثابتة من المحسوسات إلى الذهنيات خاصة إلى الله غير المخلوق. التحريم من أكل الثمرة يشير إلى دعوة الله للإنسان أن يختار المسيرة التصاعدية وخاصة حركته الأولى من المحسوسات إلى ما فوق المحسوسات، من المخلوقات إلى الخالق. هذا يعني أن الله دَعَ الإنسان لأن يختار الاستخدام «الإفخارستي» للعنصر الإلهي وليس استقلاله عنه. دُعي الإنسان لكي يعبد الله بواسطة المخلوقات، لكن فضَّل أبوينا الأولين أن يأكلا «الثمرة المحرَّمة» بأن يأخذا العناصر المادية لكي يسعدا بها وليس من خلال إطار العشاء الإلهي الإفخارستي كما أراد الخالق.

خضع آدم وحواء لمشورة إبليس[٨] وأكلا من الثمرة المحرَّمة؛ أي تناولا العنصر الطبيعي، ليس أمام الله ومع الله في العشاء الإفخارستي لكن سراً (في الخفاء)، خارج وبعيد عن الحضن الإلهي الدافئ. بهذه الطريقة هجر الإنسان «العشاء الإلهي»، وبدأ يشترك في «العشاء الشيطاني» ليس في العشاء الإفخارستي بل كان بمثابة استخدام مستقل للخيرات المادية[٩] في عبادة الخليقة وليس الخالق.

هكذا التفَّ الإنسان حول الواقع الطبيعي، كانت له هذه النتيجة الآتية: بدأ يتسلَّل العنصر الطبيعي ـ الذي كان قبلاً، واقعًا خارجيًّا بالنسبة للإنسان ـ

---

[٨] يصف القديس إيريناؤس هذا الأمر قائلاً: [ولكن الإنسان لم يحفظ هذه الوصية، ولا أطاع الله، لكن خُدع من الملاك (الساقط) الذي حسده بسب العطايا الكثيرة التي أعطاها الله للإنسان، وجلب له الدمار وجعله خاطئاً، مقنعاً إياه أن يخالف وصية الله] الكرازة الرسولية، ص٨١.

[٩] بول أفدوكيموف، المرأة، ص١٠٥، ٢٣٠-٢٣١.

إلى الوجود البشري وصار عنصراً أساسياً في طبيعته. وقد رُمز لهذه النتيجة بالأكل من الثمرة المحرَّمة. بهذه الطريقة صار العنصر الخارجي، داخلي وأساسي. إذ بدأ يتسلَّل إلى وجود الإنسان كرباط أساسي للطبيعة البشرية.

أما **الموقف الثاني** هو ارتداء أبوينا الأولين «الأقمطة الجلدية»[١٠]. ألبس الله ـ بحسب الكتاب ـ أدم وحواء ـ بعد السقوط ـ ملابس مصنوعة من جلود الحيوانات. إنّ مفهوم هذا السر الكتابي الرمزي هو: الحياة البيولوجية للخليقة غير العاقلة (الحيوانات) والتي تُميِّز اليوم الإنسان. ملامح هذه الطبيعة غير العاقلة والحيوانية هى حالة وجودية وكيانية سقط فيها الإنسان، إنها «زينة حيوانية» تزيَّن بها الإنسان فيما بعد. بينما الإنسان ـ قبل السقوط ـ كان عارياً من الأقمصة الجلديّة الميتة، إلا إنه تغطَّى ـ بعد ذلك ـ بالأقمصة الجلديّة. ويؤكد القديس غريغوريوس النيصي على أن هذه الأقمصة الجلديّة تُمثِّل الطبيعة غير العاقلة حيث الشهوات الحيوانيّة[١١].

إنّ تسلُّل العنصر الطبيعي ودخوله في الوجود البشري وتطابق الإنسان مع الحيوانات هو بمثابة تغيُّر جوهري وأساسي في حالة الإنسان الأولى.

(ب) تذبذب الطبيعة البشرية:

أحد ملامح الحياة الطبيعية هو التغير المستمر الذي ينتج عنه انحدار وذوبان.

و يصف سليمان الحكيم في سفر الجامعة هذا الملمح الأساسي للحياة وللتاريخ البشري[١٢]. هذا التغير المستمر وتذبذب العناصر الطبيعية بدأت تُظهِره الطبيعة البشرية بعد السقوط. لقد فقدت الطبيعة البشرية بساطتها وسلامتها وإمكانية عدم الفساد وعدم الموت وتهشمت وانعطفت ناحية الأدنى والأسفل. ووصف القديس أثناسيوس الرسولي في كتابة «تجسد الكلمة» هذه الحالة

---

[١٠] انظر تك ٣:٢١.

[11] Π.Νέλλα,ζῶον θεούμενον, σελ. 50 εξ.

[١٢] انظر سفر الجامعة ١:١ -١١.

قائلا: [كان الجنس البشري سائراً نحو الهلاك، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كان الإنسان العاقل والمخلوق على صورة الله آخذاً في التلاشي، وكانت خليقة الله آخذة في الانحلال][١٣] لقد إنكسرت الطبيعة البشرية كأنها إناء تهشم وإنسكب منة محتواة الثمين. لقد تحدث الآباء القديسين عن أشكال التغير والتحولات المستمرة للطبيعة البشرية بعد السقوط. فالحياة البيولوجية من شهوة وشبع ونوم وإخلاء وأمتلاء يجعل الإنسان يشبه الحيوانات التي تدير طاحونة الحياة البيولوجية.[١٤]

(ج) سيطرة الغرائز والشهوات:

الغرائز تسيطر على الطبيعة الحيوانية، فالحياة البيولوجية هى بالحرى حياة غريزية. فالتعايش والتكاثر - بالنسبة للحيوانات - يعتمد إعتماد كلُي على وجود الغرائز وفاعليتها. بينما الإنسان - في الحالة الأولى - كان عديم التأثُّر $\alpha\pi\alpha\theta\acute{\eta}\varsigma$ كما قُلنا. لكن بعد السقوط تغيرت مفاعيل الإنسان النفسية والجسدية وصارت غريزية. منذ ذلك الحين صارت الخصائص الحيوانية للمخلوقات غير العاقلة هى نفسها خصائص الطبيعة البشرية العاقلة. هذه الخصائص تسللت داخل الإنسان وسيطرت عليه وهى تُدعى - في الخطاب المسيحي - شهوات $\pi\acute{\alpha}\theta\eta$:

يقول القديس أثناسيوس: [بدأ الفساد يسود عليهم (على البشر)، بل صار له سيادة على البشر أقوي من سيادته الطبيعية.... فالبشر لم يقفوا عند حد معين في خطاياهم بل تمادوا في الشر حتي أنهم شيئاً فشيئا تجاوزوا كل الحدود، وصاروا يخترعون الشر حتى جلبوا على أنفسهم الموت والفساد ثم توغلوا في الظلم والمخالفة ولم يتوقفوا عند شر واحد بل كان كل شر يقودهم إلى شر جديد أصبحوا نهمين في فعل الشر][١٥]. هكذا صار الإنسان من مَلِكْ ومتسيد على كل الخليقة إلى أسير وعبد لشهوات الطبيعة غير العاقلة. هذه الحالة

---

[١٣] تجسد الكلمة (١:٦).

[14] PG46،888D-889A

[١٥] القديس أثناسيوس الرسولي، تجسد الكلمة ٢:٥-٣.

يصفها المرنم قائلاً: «والإنسان في كرامة لا يبيت يشبه البهائم التي تباد» (مز ٤٩: ١٣).

(د) الفساد والألم والموت للإنسان:

حلَّ الفساد كنتيجة للتغير المستمر لعناصر الحياة الطبيعية بينما الفساد يسود على كل الخليقة غير العاقلة أيضاً في حالتها الأولى قبل السقوط، إلاَّ أن الإنسان فقد إمكانية عدم الفساد وخضع للألم والموت. فالفساد سبب للبشرية الألم، لذا بعد السقوط تألم آدم وبكى، وبدأ يكسب رزقه بعرق جبينه (انظر تك٣: ١٦)، ويفسد جسده (راجع تك ٣: ١٧، ١٩) وولدت حواء أولادها بالآم وأوجاع (انظر تك ٣: ١٦)، ورأت مع آدم الموت على وجه إبنهما هابيل الذي قتله أخوه قايين. ويوضح القديس أثناسيوس هذا الأمر، قائلاً: [ساد الموت أكثر وعم الفساد على البشر، وبالتالي كان الجنس البشري سائراً نحو الهلاك، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كان الإنسان العاقل والمخلوق على صورة الله آخذاً في التلاشي، وكانت خليقة الله آخذة في الانحلال][١٦]

٢. النتائج الخاصة بالعلاقة بين الجنسين:

لم يؤثر السقوط على إفساد الوحدة والشركة بين الله و الإنسان بل أيضاً على العلاقة الشخصية بين الرجل والمرأة. هكذا تغرُّب الإنسان عن الله تسبب أيضاً في تغرُّب الإنسان عن أخيه الإنسان. لقد خُلقا الرجل والمرأة متساويان ومتماثلان، ولهما نفس الكرامة ومتكاملان داخل إطار الطبيعة البشرية الواحدة غير المجزئة. لكن الطبيعة البشرية - بعد السقوط - تجزئت وإنقسمت إلى أفراد كثيرين[١٧]. دعونا نرى كيف صار هذا الانقسام، وما هي النتائج المترتبة على ذلك بالنسبة للرجل والمرأة نفسياً وجسدياً، وكذلك بالنسبة للعلاقة فيما بينهما:

---

[١٦] المرجع السابق، ف. ١: ٦.

[١٧] فلاديمير لوسكي، لاهوت الكنيسة الشرقية السري، ص١٤٢.

(أ) التهشُّم والاستقطاب:

لقد لعب عامل آخر دوراً خطيراً في إنكسار الشركة الأولى بين الإنسان والله وكذلك في إنكسار الشركة بين الرجل والمرأة، بحسب الإعلان الكتابي هذا العامل هو الشيطان، المخلوق الأول الذي تمَّرد وإنفصل عن الشركة الإلهية وصار العدو الأزلي للإنسان والمضاد الدائم لخطة الخالق. يخبرنا نص سفر التكوين(تك ٣:١ ـ٧) إن الشيطان في شكل الحية[١٨] اقترب من المرأة وتحدث معها وبطريقة خبيثة نجح في إثارة الشقاق الأول في علاقة المرأة بالله. تسلل الشيطان من هذا الشقاق الذي فُتح في الطبيعة البشرية، وأصبح الشقاق فجوة تفصل الطبيعة البشرية وتمزقها.[١٩]

هذا الحدث يُظهر طبيعة ودور الشيطان، هذا المخلوق الذي يعني باليونانية διάβολος أي المثير للشقاق والانفصال بين كائنات الله المخلوقة. إذن، العامل الأول الذي سببَّ الشقاق والانفصال للشركة بين الجنسين هو الشيطان والعدو الأزلي للإنسان. وقتذاك لعَّب الشيطان دوراً أساسياً في التصادمات وإنفصال الزوج البشري، وكذلك البشر عموماً. لنرى الآن الوسيلة التي استخدمها الشيطان لكي يهشم وحدة الطبيعة البشرية الواحدة. كانت الوسيلة هى العنصر المادي الذي رُمز له بالثمرة المحرمة التي أكلها الآباء الأولون.

في الحالة الأولى، كانا آدم وحواء شخصان بشريان صحيحان ـ كما قُلنا ـ لكن عندما بدأت حياة الإنسان تعتمد وتُنظم بواسطة العنصر الطبيعي والبيولوجي والحيواني، بدأت ـ تدريجياً ـ سيادة الملامح الخارجية والبيولوجية والحيوانية لجنس الذكر والأنثى. وهكذا إنسحبت الملامح الشخصية للرجل والمرأة، بينما سادت صفات العنصر الذكري البيولوجي والأنثوي أيضاً.

---

[١٨] بحسب بول افدوكيموف، لم يستطيع الشر أن يأخذ شكل بشري. فظهر في شكل الحية، بمعني شكل غريب عن الطبيعة البشرية الحديث بين الحيه والمرأة يُظهر التصادم بين عالمين والأكل من الثمرة المحرمة ترمز إلى تسلل العنصر العالمي والشيطاني في الطبيعة البشرية. انظر: بول أفدوكيموف، المرأة، ص ١٠٥، ٢٣١.

[19] PG 48،595

بهذه الطريقة صارا ـ الرجل والمرأة اللذين كانا متساويان ومتماثلان بالرغم من الاختلاف النفسي والجسدي لهما ـ بعد السقوط جنسين مختلفين ومتضادين[٢٠]. تمزقت الطبيعة البشرية بعد السقوط وإنشطرت إلى نصفين، الرجل والمرأة. وأستقطاب الواحد الآخر هو التغير الذي نتج من سقوط الطبيعة البشرية.

إن تعبير سفر التكوين «عرفا أنهما عريانين»(تك ٣:٧) يشير إلى موضوع الاستقطاب. أدركا آدم وحواء التغير الذي صار لوجودهما النفسي والجسدي والذي أظهر بشدة ملامح العنصر الذكوري والأنثوي النفسي والجسدي الذي كان لديهما وقد سبق وشاهدوهما في الحيوانات. وهذا ما ترتب عليه بداية عمل الجنس كعمل غريزي ـ كما سنرى فيما بعد.

(ب) الفردية والعُزلة:

بعد تهشم وإنحلال الشركة بين الرجل والمرأة، تلك الشركة المؤسسة على الشخص الإنساني، إنحصرا في ملامح جنسهما. هكذا، تحولا من الشركة بحسب الشخص إلى أفراد معزولة. على مستوي الشخص، الواحد كان منفتحاً على الآخر، ومن هذه العلاقة اعتمدت وحدة الجنسين ومضياً إلى كمالها واكتمالها ـ كما قلنا ـ لكن بالسقوط إنقطعت هذه الشركة وإنحصر كل واحد وإنغلق على نفسه وصار متمركزاً حول الأنا. وسيطرة عناصر الأنا بالنسبة للرجل والمرأة أدي إلى عزُلة الأثنين. وعبارة «ليس جيداً أن يكون الإنسان لوحدة» التي إعتبرها الخالق شئ مؤسف بالنسبة للإنسان عادَّ إليها الإنسان مرة آخري. لقد عُزل الرجل والمرأة كل واحد في قلعته الفردية والأنانية. وهكذا كل واحدٍ يحيا الحالة المتغربة لعُزلة الكائن البشري.

---

[٢٠] يقول فلاديمير لوسكي: «فقط بعد الخطية صار الأثنان طبيعتين منفصلتين، كائنين فرديين فيما بينهما». فلاديمير لوسكي، لاهوت الكنيسة الشرقية السري، ص١٤٢.

(ج) الارتياب والمزاحمة والعداوة بين الجنسين:

لقد نتجت حالات أخرى مأسوية من العزلة وتهشم الشركة، مثل الارتياب والعداوة والمزاحمة فيما بينهما. أُعطيت السيادة للرجل - في الحالة الأولى - بواسطة الله، بهدف قيادة الخليقة ناحية الله «فيتسلطون على سمك البحر....» (تك ١:٢٦). لكن بعد السقوط تغيرت وتحولت هذه السيادة، وحاول كل من الرجل والمرأة فرض سيادة الواحد على الآخر. إذن المزاحمة والتصادم بين الاثنين هى من نتائج السقوط. هكذا بدأ الرجل - مزهواً بقدراته كذكر - يُعامل المرأة كعبده وخادمة له فارضاً عليها سيادة ليست بحسب الله.

٣. نتائج تخص الجنس *sex* :

أثر العنصر الطبيعي الذي تسلل إلى الطبيعة البشرية تأثيراً كبيراً على طبيعة الجنس. لذلك بدأ يحمِّل كل ملامح الطبيعة الحيوانية في الطبيعة البشرية الساقطة، والتي يُرمز إليه في النص الكتابي بإرتداء الآباء الأولين «الأقمصة الجلدية» (تك٣:٢١) هذه الملامح هى:

(أ) تذبذب العناصر النفسية والجسدية والجنسية

ظهرت العناصر الجسدية والبيولوجية للجنس بعد السقوط متذبذبة، وكذلك تتصف العناصر النفسية للجنس بعد السقوط بالتغير المستمر، العواطف والرغبات المرتبطة بالجنس هى متذبذبة وتَسبب يومياً مشاكل لا حصر لها ومآسي في حياة الجنسين.[٢١]

(ب) سيطرة دافع اللذة الجسدي (الغريزي)

سيطرة ملامح الطبيعة الحيوانية على الطبيعة البشرية بعد السقوط ترتب عليه نزول الجنس من الوظيفة البشرية إلى مستوى الوظيفة الغريزيه. بمعني أن

---

[٢١] شهادة حاسمة عن هذا الموضوع تعطيه لنا الأغاني العاطفية التي تشير إلي ميوعة وسهولة الأحاسيس والمشاعر العشقية والوعود، ومرة أخري تشير إلي عمق اليأس الذي تسببه في نفوس العشاق. علي الجانب الآخر، هناك أشعار وألحان تتغني بالعلاقة العشقية «أنا- أنت» تعبر عن عمق شوق البشر ــ رجال ونساء ــ للعشق الأول الذي كان بينهما وبين الله قبل السقوط.

الجنس عند الإنسان صار شبيه بالذي عند الحيوانات. هذا يعني أن الجنس، بعد السقوط، لم يبق تحت السيطرة ولا أصبح يُنظم بواسطة إرادة الإنسان بل ظلَّ يعمل غريزياً، لا إرادياً وعشوائياً مثلما يحدث مع كل الغرائز. أساس الجنس بعد السقوط هو الملمح الغريزي الذي يُعلنَّ عن طريق الانجذاب المتبادل بين الجنسين لأجل اللذة الجسدية وهذا لا يعني أن الجنس جرَّد الإرادة البشرية بطريقة مطلقة. لأنه من المؤكد أن الإنسان بالتربية المسيحية المستنيرة يمكن له أن يدرب إرادته الضعيفة حتى تفرض نفسها وتسود على غرائزه بما فيها الغريزة الجنسية، كما سنري فيما بعد.

(ج) الخجل والحياء والشعور بالذنب والخوف

بدأ أبوينا الأولين - بعد السقوط - في إختيار بعض الملامح العاطفية والمرتبطة مباشرةً بتعبير الجنس *sex*. هذه المشاعر كانت الخجل والشعور بالذنب والخوف. لقد دوَّن نص التكوين بوضوح الآتي: «فأنفتحت أعينهما وعلما أنهما عُريانان فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر. وسمعا صوت الرب الإله في وسط شجر الجنة. فنادي الرب الإله آدم وقال له أين أنت فقال سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان فاختبأت» (تك ٣:٧-١٠).

منذ ذلك الحين، يرتبط الجسد البشري العاري بشعور الخجل. فكل البشر - بعد السقوط - يغطون عُريهم وخاصةً الأعضاء الجنسية. إتحاد الرجل والمرأة يصير دائماً خفية وسراً! وعندما يصير الفعل الجنسي في مكان عام يُعتبر جريمة ويُعاقب عليها من القوانين المدنية.

على الجانب الآخر، سيطرة العنصر الغريزي على الجنس صُحب أيضاً بالشعور بالذنب. هذا يُبين أن أبوينا الأولين أدركا كيف أن التغير الذي حدث في طبيعتهما يرجع إلى تغربهما عن الله. لذلك عندما ظهر الله، فإن أبوينا الأولين خافا وإختبئا شاعرين بالذنب أمامة. فالإنسان الذي كان يتواصل مع الله يومياً أصبح يخاف من الله ويختبئ. هذا الخوف ليس له علاقة بالمهابة المقدسة أمام الله. إنه الخوف المرضي الذي يرجع إلى الضمير الإنساني الممزق.

(د) إجراءات الولادة البيولوجية:

إرتبطت الوظيفة الجنسية بعد السقوط إرتباطاً مباشراً بالتكاثر وبقاء الجنس البشري أما في الحالة الأولى - قبل السقوط - كان تكاثر البشر سيصير سواء بطريقة غير معروفة لنا أو بطريقة غير غريزية جنسية، كما قلنا. لكن بعد السقوط أصبح تكاثر البشر يصاحبه إجراءات الولادة البيولوجية مثل الطبيعة الحيوانية. الولادة البيولوجية هى خبرة ألم ووجع للمرأة والأولاد يولدون ثم يموتون مثل كل الحيوانات. لذا فإن إجراءات الحياة البيولوجية هى إجراءات فساد وألم وموت كما قال ذهبي الفم: [حيث الموت هناك الزواج][٢٢].

٤. تدخل الخالق محب البشر

أُصيب كل البشر من جراء السقوط بالتشاؤم والكآبة والإحباط خاصةً تجاه الجنس *sex*[٢٣]. والمكانة الوضيعة للمرأة في المجتمعات البشرية كانت بمثابة التعبير عن هذا الإحباط، بسب تطابقها مع الجنس *sex* (المرأة = الجنس *sex*). والله - بالتأكيد - لم يكن له أية علاقة وأية مسئولية عن هذا التغير والفساد والشر الذي تسلَّل إلى الطبيعة البشرية وأيضاً إلى كل الخليقة. ولقد تحققنا - من كل ما سبق - من أن سبب التغير والتحول الذي طرأ على الطبيعة البشرية هو الإنسان نفسه ثم بعد ذلك الشيطان، عدوة. لكن الله - مثل أي أب حنون - لم يترك الإنسان لمصيره لكن استمر في التعبير عن محبته غير المتناهية تجاه حالته بعد السقوط.[٢٤]

---

[22] PG 48، 544

[٢٣] هذا الإحباط والتشاؤم نراه في الرواية الثانية عن الخلق في سفر التكوين (تك٢:٢٤) حيث أن الجنس بعد السقوط صار علامة مركزية للبشر، أنه بمثابة سُكني الدنس الذي أطاح بالآمال البشرية وأحطَّ من قيمة الحياة . نجد الإحباط والكآبة والحزن في موقف الإسرائيلي، حيث أن الرواية الثانية كتُبت بعد الأسر البابلي، عندما رأي الاسرائيلي أنه محاط من عبادة الأوثان لإله البعل، وكانت ديانة الإخصاب وممارسة الجنس أثناء العبادة، وللأسف خضَّع بسهولة لعبادة الأوثان، الأمر الذي قاد إلي تغرب الشعب كله عن الله. علي النقيض، في الرواية الأولى لسفر التكوين: الإصحاح الأول يُقدم موقف متفائل وإيجابي تجاه الجنسsex هذا التفاؤل يرجع إلي العصر الذي كُتبت فيه هذه الرواية إذ أن عبادة البعل كانت قد توقفت عن تهديدها لسلامة العبادة اليهودية التي كانت تؤمن باله واحد.

[24] PG36،474

محبة الله تجاه مخلوقاته وخاصةً تجاه الإنسان كانت محبه دائمة وغير متغيرة. هذه المحبة تدعوها الكنيسة محبه البشر φιλανθρωπìα. لقد عبرَّ الله عن هذه المحبة في صورة إجراءات أتخذها ليساعد الإنسان الساقط ورده إلى مكانته الأولى، والتي سوف نذكرها فيما بعد. **العنصر الأول** والأساس لمحبة الله للبشر هو الاحتمال وطول أناته، فالله الذي لم يخلق الشر ولم يكن مسئولاً عن تغير الإنسان للأسوء، قبَلِ الإنسان الساقط بطرق مختلفة وأمسك به ودعمَه لكي يستمر ويكمل رسالته الأولى في العالم. أما **العنصر الثاني** لمحبة الله للبشر هو تغير الشر إلى خير. وهذا حدث في حالة السقوط فالله غيرَّ العناصر السلبية للحالة الساقطة للإنسان إلى حالة إيجابية. لقد أحتمل الله، بمحبته غير المتناهية للإنسان، الوظائف المتغيرة للطبيعة البشرية وإستخدمها لفائدة الإنسان.[٢٥].

بأكثر تحديد، استخدام الله حاله الجنس المتغربة بعد السقوط كأداة لإعادة وحدة الطبيعة البشرية وعامةً لتحقيق خطته اللإنسان ورسالته في العالم.

دعونا نري بعض هذه الحالات الإيجابية في الطبيعة البشرية، واستخدام الله للجنس بعد السقوط:

(أ) تحرير الإنسان من انغلاقه على ذاته وإعادة الوحدة والشركة بين الجنسين المبنية على كينونة الإنسان

انفصل الإنسان الساقط عن اخيه الإنسان وانعزل وانغلق على ذاته. كان يوجد بالتالي خطر أن الإنسان الذي كان هو عامل أساسي للخطة الإلهية يُجرَّد تماما - كما قلنا. بالتالي، الاحتياج المباشر كان تحرَّر الإنسان من السجن وعُزلته المتمركزة حول الأنا حيث قادة إليه الشيطان عدوة وأغلق عليه.

---

[٢٥] النص الكتابي الذي يتكلم عن لبس الأبوين الأولين «للأقمصة الجلدية» يشير إلى الإجراءات التي اتخذها الله لأجل الإنسان الساقط. بحسب التعليم الأرثوذكسي، ارتداء الأقمصة الجلدية لها أهميتين الأولى: سلبية وتخص العنصر الطبيعي الذي دخل الإنسان بعد السقوط. والأخرى إيجابية وتخص الإجراءات التي أخذها الله محب البشر لكي يؤمّن حياة الإنسان في حالته المتغربة ولكي يقوده إلي تحقيق هدفه المعين. وكون أن الله هو الذي صنع هذه الأقمصة الجلدية فهذا يُعبر عن هذه الأهمية الإيجابية لها.

لكن لأجل تحقيق هذا الأمر كان هناك إحتياج لقوة فوق بشرية لكي توقظ الإنسان من الداخل ليهتم بآخر، بأخيه في الإنسانية وكذالك الاهتمام المتبادل بين الرجل والمرأة. هكذا إستخدم الله الشهوة والقوة الجنسية لكي يدفع الرجل تجاه المرأة والعكس صحيح. إذن أُستخدمت الشهوة الجسدية كدافع للوحدة والمحبة بين الزوج البشري.

لأجل نفس الهدف استخدم الله ملمح من ملامح الجنس وهو اللذة. لأنه ـ كما قلنا ـ الشهوة الغريزية للجنس من أجل اتحاد الجنسين يصاحبهما اللذة والاستمتاع الذي ينشئ إراحة للتوتر الغريزي. إذن ـ كما قال الذهبي الفم ـ سمح الله لعنصر اللذة لكي يُلجم الطبيعة الإنسانية الممزقة ولكي يعيد وحدة الشخصين[٢٦].

تحدث سفر التكوين عن هدف الجنس *sex* هذا ـ بعد السقوط ـ نبوياً عندما قدَّم له الله حواء: يلتصق (الرجل) بامرأته ويكونان جسداً واحداً (انظر تك ٢:٢٤). كرز آدم بأن الجنس سيكون بمثابة مساهمة فعالة في إعادة اتحاد بين الجنسين المنفصلين والمتصارعين وإعادة إصلاح الطبيعة الواحدة البشرية المجزئة.

(ب) تكاثر البشر واستمرارية الحياة:

بتسلل العنصر الطبيعي في البشرية دخل الفساد والموت وخطر فناء الإنسان. وبالتالي واجه الجنس البشري تهديد مباشر وخطر الزوال. ولكي يُصُد هذا التهديد فالحاجة إلى قوة جبارة تُجرد الموت وتؤَمنِ البقاء ودوام الجنس البشري.

استخدم الله ـ لتحقيق هذا الهدف ـ ملمح آخر للجنس بعد السقوط أي المشاركة في الخلق (الولادة). إذ ارتبطت الوظيفة الجنسية ـ بعد السقوط ـ إرتباطاً مباشراً بعملية الولادة البيولوجية وتكاثر البشر. لقد استخدم الله هذه الوظيفة كترياق ضد الموت، ومن هنا نفهم عبارة ذهبي الفم المشهورة: [حيث الموت هناك الزواج]. لو كان هدف الشيطان هو الموت وفناء الإنسان، فإن

[26] PG51، 227

هدف وإرادة الخالق دائماً هو الحياة والحياة الُفضلى. لذلك استخدم الله الجنس *sex* كوسيلة للبقاء وتكاثر البشر. وكون أن الجنس *sex* بعد السقوط يخدم عمل الله في استمرار خلق البشر، فهذا يعطيه ملمح مقدس. وهكذا تكتسب الغريزة الجنسية أهمية لأنها تجعل عمل الله الخالق مستمر وممتد.

أيضاً هناك برهان لاستخدام الجنس *sex* كوسيلة للإنتصار على الموت في نص سفر التكوين. فقد واجه أبوينا الأولين للمرة الأولى الموت في شخص ابنهم هابيل حين قتله أخيه قايين، حملت حواء مباشرةً وولدت شيث، وحلَّ محل هابيل: «وعرف آدم امرأته أيضاً فولدت إبناً ودعت اسمه شيثاً. قائلة لأن الله قد وضع لي نسلاً آخر عوضاً عن هابيل» (تك٤:٢٥).

(ج) فرصة جديدة لحُرية الاختيار: الاستخدام الشرير أو الصالح للجنس *sex*

تظُهر العناصر السلبية والإيجابية للجنس بعد السقوط أن هذه الوظيفة هى بمثابة فرصة جديدة أُعطيت للإنسان، دعوة جديدة لحرية الاختيار أُعطيت للإنسان. أي الاختيار بين أمرين، إما الاستخدام الصالح للجنس أو الاستخدام السيئ، وهذا الاختيار يتوقف ثانيةً على إرادة الإنسان الحُرة.

الفرصة الأولى التي أعطاها الخالق للإنسان لتحقيق هدف وجوده المعين كانت الحالة الأولى والعذراوية للطبيعة البشرية. فهناك إجماع تام من التعاليم الكتابية والتقليد الأرثوذكسي على أن حالة الإنسان الأولى حقاً كانت عربون للحالة الكاملة والتي كان في استطاعة الإنسان أن يكتسبها - مستقبلاً - باختياره الحُر وبعمله المشترك مع الخالق συνεργασία.

نفس الأمر فعلة الله بعدما رفض الإنسان الفرصة الأولى صار الجنس *sex* بعد السقوط كإمكانية ثانية جديدة للإختيار الحُر من جانب الإنسان. هكذا، الاستخدام الصالح أو السيئ للجنس البيولوجي، مثل كل الوظائف البيولوجية الأخرى، تعتمد أيضاً على إرادة البشر الحُرة. وبالتالي نظام الله تجاه الإنسان في زمن قبل السقوط وبعدة ظَّل كما هو: واجه الله الإنسان

كشخص حُر ومسئول. أمام الإنسان إمكانيتين للإختيار الحُر: إما الاستخدام الصالح أو الاستخدام السيئ.

(د) إعادة إصلاح السلوك الأخلاقي للإنسان:

الألم والموت هما من ملامح حالة طبيعة الإنسان بعد السقوط، واستخدمت محبة الله للبشر هذه العناصر لإعادة إصلاح السلوك الأخلاقي للإنسان لكي يقوده إلى التوبة والرجوع إلى الله. هذا التدخل من جانب الله يراه الآباء في إرتباط الألم باللذة. اللذة الغريزية هى خارجية، هى بمثابة عنصر خارجي أي بخلاف الطبيعة قد تسَّلل في الطبيعة البشرية الأولى التي كانت عذراوية، وذلك من جراء السقوط. إذن كان يجب أن توجد طريقة لكي يُدرك الإنسان هذا الأمر، فبالألم يدرك الإنسان خطأة [٢٧]. عندما يضع الطفل يديه في لهيب شمعة مثلاً يتألم وعندئذٍ يفهم أنة أخطأ، كذلك عندما يضرب أي الإنسان رأسه في الحائط يتألم وعندئذ يدرك أنه فعل أمراً خاطئاً. هكذا عندما يتألم الإنسان يتذكر خطئه الكبير بخصوص إختيارة الأول، أي كان خطأ هجران طريقة الحياة التي فضّلها له خالقه. لذلك الشخص الأول الذي يدعوه الإنسان عندما يتألم هو الله: «يارب في الضيق طلبوك» (إش ٢٦:١٦). هذا الشعور هو بداية التوبة التي تُعيده مرة أخرى إلى أحضان الشركة الإلهية والإنسانية. نفس الأمر يسري على العناصر الأخرى لطبيعة الإنسان بعد السقوط، والتغير (التحول)، والفساد والموت.

خاتمة

لقد أخطأ الإنسان في اختياره وحوَّل محبته لله إلى المخلوقات: «عبدوا المخلوق دون الخالق» (رو١:٢٥). وهذا الاختيار الخاطئ كان سبباً لفساد الطبيعة البشرية وتغيرها إلى الأسوء. والنتائج الأكثر خطورة والناتجة من هذا الاختيار هى تسلل العنصر البيولوجي والحيواني في داخل الطبيعة البشرية، والتهشم والانكسار والاستقطاب، والتمييز التصادمي بين الجنسين، وأخيراً

---

[27] PG 53،143

تسلل وسيطرة الوظيفة الجنسية الغريزية أي إنحطاط الطبيعة البشرية إلى مستوى الطبيعة البيولوجية والحيوانية. لكن الله كلي الصلاح إتخذ إجراءات معينة لكي يعيد إصلاح الإنسان بدافع من محبته للبشر. استخدم الله العناصر السلبية للطبيعة البشرية الساقطة وخاصةً الملمح الغريزي للجنس لكي يُخرِج الإنسان: الجنسين من عزلتهم ليعيد لهما الوحدة والاتحاد فيما بينهما، وأيضاً ليحفظ دوام الجنس البشري. الأخلاق المسيحية الخاصة بالجنس sex ليست نظام ديني صارم يغلب عليه الغموض والسرية التامة (التابو) لكن بمثابة موقف إيجابي تجاه الحياة وطريقة حياة في إطار نمو الشخصية لكل من الجنسين وتحقيق هدف وجودهما. بحسب الأخلاق المسيحية، الجنس ليس هو خاطئ بطبيعته، لكن يُحكم عليه من طريقة استخدامه. بالتالي لا تقبل الأخلاق المسيحية الأرثوذكسية الرأي اللاهوتي الذي كان سائداً في الغرب بأن الجنس *sex* هو خاطئ بطبيعته.